

الفصل الخامس

المرشعية دليل المنهجية .. ونائجها في العالم الاجتماعي

● معنى الموضوعية

- موضوعية العلوم الاجتماعية
- ما هو المقصود بالموضوعية ؟

● ركائز الموضوعية

- الحيادة
- الأمانة
- الدقة

● عناصر الموضوعية

- الظاهرة أو الموضوع المبحوث
- الباد الذي سيدرس المشكلة
- المنهج المستخدم في البحث
- طبيعة المعرفة المتحصل عليها

الموضوعية دليل التنهية ونقيضها في العلوم الاجتماعية



موضوعية العلوم الاجتماعية :

لعل الموضوعية .. سواء اكانت موضوعية .. في العلم .. او للعلم
او حتى كمجرد اصطلاح .. لعلها من اكثر الموضوعات اثارا للجدل ليس
نقط بين فلاسفة العلم والمشتغلين به ، ولكنها كذلك حتى بين الناس العاديين
او الذين يربطهم بالعلم خيط رفيع من القراءة او المتابعة .



ما هو المقصود بالموضوعية ؟ :

١ - هناك من يرى ان الموضوعية هي في نهاية الامر غياب لكل عوامل
التحيز ، وكف لتأثيرها .

اما كيف تكون موضوعيا فهذا معناه .. لا تتأثر بدوافعك وعرفك
وقيمك وموقفك الاجتماعي (١) .

٢ - هناك من يعتقد أن الموضوعية بمفهومها العلمي ، أو التي يقصدها العلم إنما هي موضوعية الوقائع العلمية التي تظهر من خلال الأجهزة والمقاييس والموازين ، كما أن الموضوعية أيضا هي التي تظهر في العمل الكيميائي بعد التحليل والتركيب (٢) .

٣ - ومن العلماء من يرى أن الموضوعية تعني الالتزام بالمنهج العلمي في أية دراسة وذلك بالاستناد على الملاحظة الدقيقة والاستقراء علاوة على اجراء التجربة المنضبطة ، واتباع ذلك أو الاعتماد عليه يؤدي الى الموضوعية التي تجعل الدراسة بحق علمية (٣) .

٤ - وهناك من يرى أن التزام الموضوعية في البحوث العلمية إنما يعني اقصاء الخبرة الذاتية لمعرفة الأشياء كما هي في الواقع ، لأن العلم هو الذي يقوم بوصف الأشياء وتقرير حالتها في صورتها الواقعية ، وتنجلي الموضوعية من خلال عرض موضوع واحد للدراسة من طرف مجموعة من العلماء ، وانتهائهم جميعا الى نفس النتائج ، وان حدث بينهم خلاف احتكموا الى الواقع لتكوين التجربة هي محك الصواب أو الخطأ عندهم ، ووظيفة التجربة هنا . هي إعادة التثبت من صحة النتائج بطريقة موضوعية خالصة (٤) .

٥ - هناك من يرى أن الموضوعية جهد ايجابي موصول ببذله الباحث، وينظر إليها - أي الى الموضوعية - من خلال ما لها من دلالات متفاوتة ومستويات متباينة ، وتتفاوت دلالات الموضوعية بين الدالة الاكسيولوجية « القيمية » والتي تعتبر الموضوعية بمقتضاها تجردا لكل حكم من أحكام القيمة ، وبين الدالة الابستمولوجية « المعرفية » التي تعني بالصلة ما بين الذات العارفة والموضوع المعروف ، وبين الدالة السيكلوجية « النفسية » متى كانت الموضوعية تمجيصا لأثر العوامل النفسية في تشكيل المعرفة ، وأخيرا الدالة الثقافية التي تشير الى الاتفاق أو التوافق حول المعايير

التدابير السائدة في المناخ الفكري عند بحث موضوع الدراسة بحيث تؤسس التعريفات والمفاهيم وسائر الخطوات والادوات على طائفة من الاجراءات والتصورات التي اتفق المجتمع العلمي في هذا الوقت أو ذاك على الالتزام بها لكي توفر شروط التحقيق والاثبات .

كان ذلك عن دلالات الموضوعية في العلوم الانسانية ، اما عن مستوياتها ، فتمثل في مستويين أولهما المستوى « الانطولوجي » والمستوى « الميتودولوجي » ، ويتصل المستوى الأول بالنظرية العلمية أو « ماذا ندرس » ، بينما يتصل المستوى الثاني بالمنهج المستخدم في دراسة موضوع البحث ، أو « كيف ندرس » .

ويرى أصحاب ذلك الاتجاه أن العادة قد جرت عند بحث مشكلة الموضوعية في العلوم الانسانية على الخلط بين دلالات الموضوعية ومستوياتها الامر الذي أدى الى صعوبة تحديد مشكلة الموضوعية سعيا وراء ايجاد حل لها ، خصوصا وأن الموضوعية ليست رأيا يلقيه الباحث ثم يمضى الى سائر شئونه في البحث ، كما أنها ليست فضولا أو ترفا نظريا يزاوله الباحث في لحظات فراغه من البحث ، بل ان الموضوعية موقف شامل للباحث من قضية البحث بأسرها لا تستبين عناصره الا من ثنايا فكره وعمله جميعا (٥) .

٦ - وهناك من يعتقد بأن الموضوعية هي « نوع من المسافة العقلية بين الباحث وموضوع بحثه » ، ويعتبرها - أي الموضوعية - شرطا جوهريا وأساسيا حتى يحتل العلم مكانته اللائقة به في المجتمع المعاصر .

ويتزعم ذلك الاعتقاد عالم الاجتماع الأمريكي « تالكوت بارلسونز » ، الذي يحذر من استسلام الباحث أو وقوعه بين شقي الرعي بالنسبة لنمط الثقافة الكلية أو الجزئية السائدين في مجتمع الباحث ، وينصحه بالقيام بعملية مواءمة يتمكن عن طريقها من الفصل بين الثقافتين وعدم الاستغراق في أيهما ، لأن ذلك الفصل هو في رأى بارلسونز دليل الموضوعية ويكفيها ،

ويؤكد بارسونز على أن تلك الموضوعية حتى ولو كانت نسبية فإنها سوف تضيف على الباحث احتراما وثقة .

وان كان الامر يستوجب في رأى بارسونز أن يلزم الباحث نفسه بمنطق الشك العلمي والزمه ، لأن العلم - عند بارسونز - مهمة مقدسة تستحق أن يكرس لها الباحث كل حياته في موضوعية وتجرد (*) .

ركائز الموضوعية :

تنهض الموضوعية بصفة عامة على ثلاثة ركائز اساسية تتمثل في الحيدة والدقة والامانة . وتبدو هذه الركائز للوهلة الاولى ثلاثة . . لكنها في الواقع كل مترابط متساند لأنه لا حيدة بغير امانة أو دقة ، وأنه لا امانة بغير أن يأخذ الباحث نفسه بالدقة العلمية والحياد الموضوعي ، وأنه لا دقة بغير الامانة سواء في البحث أو عند عرض النتائج ، أو بغير الحياد المنهجي ضد أو مع الظاهرة أو الوقائع المبحوثة .

هذه صورة من صور النكامل والتساند بين الحيدة والدقة والامانة كركائز اساسية للموضوعية ، أما الصورة الاخرى ، فتكمن في العلم ذاته من خلال اصطناعه لمنهج يقود في النهاية الى التفسير أو الى المعرفة ، لأن العلم أو الاشتغال به ، في رأى الكثيرين عملية تربوية تؤدي الى تكوين بحاث صالحين ، حيث يتيح العلم الحديث الفرصة لتمرين عقول طلابه على الدقة عند تسجيل الحقائق وتحليلها ، ويمرن العلم طلابه وباحثيه على الحيدة والامانة سواء عند تعاملهم مع الحقائق أو عند محاولتهم استخلاص

(*) للاستزادة حول اراء بارسونز في هذه النقطة انظر :

Parsonons; T; Sociological Theory and Modern Society Evolution and Objectivity In Social Sinces; Free Press; New York, 1967, PP. 2-4.

ما بينها من علاقات ، أو عند محاولاتهم فهم مختلف الاشكال الرمزية أو القوانين التي تجمع تلك العلاقات ويربط بينها ، وكل تلك العمليات تتيج للعقل البشرى أن يستوعب النهج العلمى ، ويتخلص من الالهواء الفردية عند تكوين الاحكام .

ولكن اذا ما رمنا تفسيرنا لكل أو بعض تلك الركائز لتبين لنا ان :

- ١١ -

الحيدة :

الحيدة كانت مطلباً قديماً لكل العلماء على مر العصور ، فقد اعتبر كثير من مؤرخى العلم والمشتغلين بفلسفته ، أن الحيدة تعبير مرادف للمنهج العلمى أو هى نوع من التعمق النسبى ، ويعتبرون أن الحيدة والدقة شرطان ضروريان لكل البحوث العلمية ، كما يؤكدون على أن الحيدة كفكرة لم تكن بدعة ابتدعها المشتغلون ببحوث العلم الحديث ، وانما الحيدة كفكرة مرتكزة على طرح الهول الذاتية عند أبواب المعامل العلمية ، قد نشأت بالتدريج وآمن بضرورتها العلماء والباحثون جيلاً بعد جيل نتيجة للسخافات والالهواء التي طالما وقفت حجر عثرة فى سبيل تقدم العلم .

ويرى هؤلاء أن عدم الحيدة راجع الى سيطرة الهواة على مجال العلم الطبيعى ، فكل هاوى منهم كلما اكتشف شيئاً بالغ فيه كما وكيفا ودافع عن اكتشافه فى عناد وإصرار أمام منافسيه ، وتتوه الحيدة وسط مغالاة هؤلاء الهواة المتنافسين واكاذيبهم (٦) .

وكان لابد لصد ذلك التيار الذاتى ، من الالاحاح ، على الحيدة وتنمية الاحساس المهنى وتعميق اخلاقيات البحث وتحرير العلم من سيطرة الحوار للفلسفى والالهواء السياسية ودروب الفصاحة والبلاغة .

وكانت الجمعيات العلمية التي احتوت العلم وأمله وفشرت جوا اجتماعيا قرب بين المشتغلين بالعلم ، وزكت فيهم روح للعلم وأخلاقياته

وجملت كل واحد منهم قادرا مهما بلغ من الحساسية او العاطفية على كبح جماح حساسياته واحتواء وادائه تارة بسبب ايمانه باخلاقيات وآداب مهنته ، وتارة بسبب ما يتجده من خطر ان حاد عن الحقيقة او مال متعديا عن الصواب نظرا لكل عيون الزملاء وأذانهم المفتوحة على جهده العلمي المبدول .

كما لا يجب اغفال الدور المؤثر في الحيدة والذي يتمثل في الحماس والتجرد الناتج عن شغف الباحث حيا في الحقيقة وسعيهم بغير كلل للوصول اليها ، حيث يعتبر « حب الحقيقة » في رأى الكثيرين هو أكبر عاصم من الزلل وأهم عامل من عوامل الحيدة .

هذا وللحيدة مقومات أساسية ، أو هي تصير وفق خطوات منهجية تتداعى الواحدة منها تلو الأخر في منطقية وتتابع . وتمثل تلك المقومات في التفكير الشجاع الأمين ، شم الخروج بنتائج ، واعلانها في شجاعة واصرار (٧) .

- ٢ -

الامانة :

ذاتية الباحث هي معيار أمانته ، بمعنى . . ان اطلق الباحث لذاتته العيان خلال خطوات بحثه بدءا من اختياره لموضوع البحث ، حتى اعداده للتقرير النهائي له ، اجاعت كل معلوماته مصطبغة بأمواله ورغباته هو ، اما ان أحسن الباحث اخراج ذاتياته من الموضوع لاتسم بحثه بالموضوعية وجاعت بياناته مفسرة للحقائق كما هو في الواقع لا كما هي في خيال الباحث أو في وجدانه .

ولعدم الامانة العلمية عدة صور وأشكال . . كما لها عدة مسببات واهداف شعورية أو لاشعورية ، وكلها توصم بالفساد وعدم للصق ، وتؤثر كثيرا على تقدم البحث العلمي وموضوعيته لاسيما في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية .

الدقة :

والدقة هنا .. تعنى حرص الباحث على اتباع المنهج العلمى أثناء بحثه عن الحقيقة ، بمعنى أن يكون سعيه نحو المعرفة مجردا وواعيا بمختلف العوامل المحيطة بالظاهرة المبحوثة ، سواء وهو يعبر عنها أو عند استخلاصه للحقائق المفسرة لها ، لأن أى انحراف سواء أثناء البحث أو عند عرض البيانات وتحليلها وتفسيرها ، نقول أن أى انحراف عن الحقيقة ستكون له نتائج ضارة سواء على الظاهرة المبحوثة أو على غيرها من الظواهر المتصلة بها أو المتسائدة معها ، صحيح أن ذلك الانحراف قد يكون اكتشافه أمرا أكثر سهولة فى العلوم الطبيعية والحيوية عنها فى العلوم الانسانية ، لكنه سوف يبقى عقبة كأداء فى سبيل تقدم العلم .. والعلم فى المجالات الاجتماعية والانسانية بالذات .

عناصر الموضوعية :

تتمثل عناصر الموضوعية فى العوامل الحورية التى تنهض عليها عملية البحث العلمى ، ونعنى بها .. الظاهرة أو الموضوع المبحوث ، والباحث الذى يقوم بعملية البحث ، وانهج المستخدم فى البحث فضلا عن طبيعة المعرفة التى تحصل عليها .

مرة أخرى نقتطع تلك العناصر .. فى الحقيقة .. وياحث عن الحقيقة وطريق مؤدى الى الحقيقة .. !!

وسنحاول أن نلقى بعض الضوء على كل من تلك العناصر على النحو الآتى :

الظاهرة أو الموضوع المبحوث :

لعل دوركايم يعتبر أول من نادى بموضوعية الظاهرة المبحوثة من خلال معارضته للنزعة الذاتية فى التفسير التى كانت سائدة فى عصره ، حيث

(م ٧ - منهجية العلوم الاجتماعية)

طالب بالا يتركز تفسير الظواهر الاجتماعية على ضوء رغبات الباحث وحالاته النفسية الشعورية ، وانما يجب أن تفسر تلك الظواهر على اعتبار أن لها طبيعة موضوعية ، أو على حد تعبير دوركايم نفسه « اننا يجب أن نعالج الظواهر الاجتماعية على اعتبار أنها أشياء » . (٨) (*) .

و « شيئية » الظواهر الاجتماعية باعتبارها كيانات أو حقائق اجتماعية مستقلة تتركز على أربعة مقومات حددها دوركايم في التلقائية ، الجبرية ، العمومية ، والخارجية .

والتلقائية هنا تعنى . . أن الظواهر الاجتماعية لا تدين بوجودها لفرد حيث أنها موجودة فعلا قبل أن يوجد الافراد ، أما الجبرية . . فتعنى أن تلك الظواهر ملزمة لكل من الفرد والجماعة على حد سواء وأن الخروج عليها يقابل بعقاب من المجتمع ، أما العمومية ، فيقصد بها أن تلك الظواهر لا يقتصر وجودها على مكان دون آخر ، لأن الظواهر كحقائق عامة تفقد خاصيتها أن تقتصر وجودها على مكان ما دون سواء ، أما الخارجية كمقوم رابع وأخير فتعنى أن الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الافراد ، وبحيث يمكن ملاحظتها « كاشياء » منفصلة عن الحياة الفردية .

وبناء على تلك المقومات الاربعة يمكن - فى رأى دوركايم - دراسة لظواهر أو الوقائع أو الحقائق الاجتماعية دراسة موضوعية خاصة اذا ما اعتمدت تلك الدراسة على المنهج الاحصائى (٩) .

وعلى كل الاحوال فان الظاهرة أو الموضوع المبحوث ، أو مشكلة البحث - فى لغة علماء المنهجية - تشكل من حيث الاختيار عاملا محوريا فى

(*) لم يقصر دوركايم فهمه للشيئية على النواحي المادية فقط ، حيث ينسحب مفهوم الشيئية كذلك على الافكار ، للاستزادة انظر :

دكتور صلاح الفوال - علم الاجتماع « الماهية والموضوع والمنهج » - دار الفحو العربى - القاهرة ١٩٨٢ ص ٧٥ - ٨٢ .

موضوعية أو عدم موضوعية المعلومات أو الحقائق أو المعرفة الناتجة عنها وعليه لابد أن يكون الموضوع المبحوث واضحاً في ذهن الباحث تماماً ونايماً عن قناعاته واختياره أو رغبته في البحث فيه على الأقل ، والقناعة هنا تنصب على الموضوع ككل من حيث الشكل والمضمون . والشكل هنا ينصب على مختلف الاجراءات المنهجية اللازمة للبحث ، أما المضمون فيعني غايات البحث وأهدافه والقيم التي ينطوى عليها الموضوع المبحوث فضلاً عن مختلف العلاقات المتألفة والمتنافرة التي تقربه أو تبعده عن مختلف الموضوعات البحثية أو الظواهر الأخرى المبحوثة .

وعلاوة على وضوح الموضوع المدروس وقناعة الباحث به ، يجب أن يكون الموضوع المبحوث في نطاق ما يسمى بـ «تقن الباحث» ونطاق التقن هنا يعني قدرات الباحث ومهاراته فضلاً عن مختلف الإمكانيات - المادية والفنية والبشرية - المتوافرة لديه ، علاوة على الوقت الذي عليه أن ينتهي خلاله من بحثه . كما يلعب التخصص دوراً مهماً . ليس فقط بالنسبة لتدعيم قدرة الباحث على دراسة موضوع بحثه ، وإنما حتى تكون هناك قيمة علمية لما سوف تسفر عنه دراسته من نتائج أو معارف .

وعلى كل حال . فإن الظاهرة أو الموضوع المبحوث ، يجب حصره في مشكلة محددة ومصاغة بطريقة واضحة ، فإذا كنّا مثلاً بصدد دراسة موضوع « الهجرة » فإنه من الزم الضروريات أن نحدد ما يسمى بنطاق المشكلة ، فلا نكتفى بالقول أننا سندرس « للهجرة » وإنما يجب أن نحدد هل سندرس الهجرة الداخلية « أي داخل نطاق المجتمع الواحد » من القرية للمدينة مثلاً ، أو الهجرة الخارجية « أي من الجزائر مثلاً إلى فرنسا أو من مصر إلى أي دولة عربية وبالعكس » ، مع توضيح دقيق لطبيعة العلاقات التي يحتمل أن تكشف عنها الدراسة العلمية للظاهرة أو للمشكلة المطروحة .

الباحث الذي سيدرس المشكلة :

تلعب العوامل الذاتية دوراً مؤثراً لدى الباحثين أثناء تعاملهم مع

الظواهر أو المشكلات أو الموضوعات المطروحة للبحث ، ولو اخذنا ٠٠ كيفية اختيار الموضوع المبحوث على سبيل المثال ٠٠ لاتضح لنا ٠٠ أن الخلفية المرجعية للمباحث والمتمثلة فى خبراته السابقة وتخصصه وقيمه واتجاهاته العلمية ، هى التى تشكل اختيار الباحث لمشكلة بحثه أو تحدد على الأقل نطاق مساهمته فيها ، لذلك فمن الامور الصعبة أن تكون هناك قواعد ثابتة تحدد أسس اختيار الباحث لموضوع بحثه ، لكن يمكن أن تكون هناك بعض المحكات التى يمكن أن يبتدئ بها كمؤشر على موضوعية الباحث عند اختياره لموضوع بحثه ٠٠ منها الاهداف الظاهرة أو الكامنة وراء اختيار موضوع البحث ، ومنها مدى قرب الموضوع المبحوث أو بعده من فلسفة المجتمع وسياسته أو أيديولوجيته ، ومنها مراعاة البحث لمختلف قواعد المنهجية وأسسها ، ومنها طبيعة تمويل البحث والجهة المشرفة عليه ، ومنها كذلك مختلف الامكانيات المادية والفنية المتاحة للبحث .

ولا يقف تأثير الباحث عند حد اختياره لمشكلة بحثه فقط ، وانما تمتد لتشمل مختلف مراحل بحثه ، بدءا من وضعه للفروض أو للتصورات التى تنهض عليها مشكلة بحثه أو التى تفسرها ، الى أن يجمع بياناته ويتعامل معها من خلال الجدولة والتبويب والتحليل والتفسير ، ثم أثناء استخلاصه للنتائج ووصولها الى الحقائق التى يسعى للتعرف عليها ، لأن ذاتية الباحث يمكن أن توجهه شعوريا أو لا شعوريا أثناء أى من تلك المراحل ٠٠ وجهة مضللة .

لذلك فقد قدمت أفكار عديدة ٠٠ استهدفت كلها تزويد الباحثين بمجموعة من النصائح الغرض منها ضمان موضوعيتهم خلال مختلف مراحل البحث ، ولعل من أقدم تلك الافكار وأبرزها ما قدمه دركايم فى هذا المجال حيث زود الباحثين الاجتماعيين بعدة نصائح أو قواعد عند تعاملهم مع للظواهر المبحوثة بغرض ضمان حيديتهم وبالتالي موضوعيتهم ، نوجز أهمها

فيما يأتي (١) :

١ - أنه على الباحث الاجتماعي أن يتحرر من أنكاره للسابقة عن الظاهرة التي يتناولها بالدراسة والبحث ، وعليه أيضا ألا يتأثر بمشاعره الخاصة أو بتجربته الشخصية عند تعامله مع الظاهرة المبحوثة .

٢ - على الباحث الاجتماعي أن يتعامل مع للظواهر الاجتماعية باعتبارها ذات كيان مستقل عن شعوره الداخلي ، وأن يعالجها معالجة وضعية باعتبارها - أي الظواهر - مادة للتجربة والملاحظة العلمية ، أو باعتبارها ذات شخصية علمية مستقلة .

٣ - على الباحث أن يبدأ بحثه بتحديد الظواهر المبحوثة وتعريفها بدقة ، ولن يتيسر للباحث ذلك الا اذا عمل على تصنيف الظواهر الاجتماعية محل الدراسة الى طوائف متجانسة لأن ذلك سوف يمكن الباحث من تحديد الخواص والخصائص المشتركة بين مختلف الظواهر موضوع البحث من جهة ، وسوف يمكن الباحث من جهة أخرى من التعرف على مختلف العناصر والاسباب التي تفسر وجود الظاهرة وتوضح طبيعتها وأشكالها المتعددة .

٤ - على الباحث السوسيولوجي أن يبذل قصارى جهده أثناء ملاحظته للظواهر الاجتماعية محل الدراسة للتعرف على الحالات التي تبدو فيها الظاهرة مستقلة عن صورتها الفردية . . بمعنى أن يهتم الباحث بعمومية الظاهرة . . ولا يقع فريسة لبعض الحالات الفردية التي قد تتجسد فيها الظاهرة ، لأن جهد الباحث في الكشف عن الظواهر الاجتماعية وهي مجردة من الصورة للفردية يمثل الضمان للكشف عن طبيعة الظاهرة والوقوف على حقيقة أمرها .

وعلى كل فان كثيرا مما ذكره دوركايم كان ولا يزال صحيحا ومحل اعتبار حتى اليوم ولو أننا يجب أن نضيف اليه ، ان موضوعية الباحث أثناء تناوله للظاهرة المبحوثة تتوقف أيضا على عدة أمور من أهمها :

(١) ما يتمتع به الباحث من قدرات ومهارات خاصة ، وهذه كلها تكتسب بطول المران ، علاوة على سعة اطلاع الباحث سواء على المعلومات

النظرية أو على الحقائق التي تولدت عن بحوث ميدانية أخرى حول المشكلة
المبحوثة أو قريبا منها .

(ب) ما يتجمع حول الباحث من مستشارين وخبراء ، لأن وجود مثل هؤلاء يشكل نوعا من الأمان العلمى للباحث خاصة لو كان مبتدئا ، لأن استشارتهم أو الرجوع اليهم عند الحاجة يمثل عاصما يعتد به من شطط الباحث أو انحرافه نتيجة سيطرة بعض المؤثرات غير الموضوعية عليه .

(ج) عمل الباحث منفردا أو ضمن فريق ، لأن قيام الباحث بعمله البحثي منفردا يزيد من صعوبة مهمته خصوصا إذا ما كان مبتدئا ، بعكس عمله ضمن فريق بحث متكامل . لأن العمل ضمن فريق يوفر للباحث جوا علميا ومناقشات لكل ما يحيط بالبحث ، ويجعل الجميع يفكرون بصوت عال مما لا يدع مجالا لتسلط الآراء الذاتية أو الفردية .

المنهج المستخدم فى البحث :

والمنهج المستخدم فى البحث يشكل هو الآخر العنصر المحورى الثالث للموضوعية ، ولا يرجع ذلك لأن منهج البحث المستخدم هو الذى يحدد فقط نوع الأدوات اللازمة لجمع البيانات حول الظاهرة المبحوثة ، وإنما لأن نجاح البحث فى تحقيق غايته يتوقف بصفة أساسية على الاختيار الموضوعى أو الرشيد للوسائل والأدوات اللازمة لجمع البيانات ، وعلى الباحث فى سبيل ذلك أن يبذل غاية الجهد حتى تكون أدواته فى جمع البيانات على أكبر قدر ممكن من الكفاءة ، حتى يمكن أن تنبثق من خلالها الثقة فى البيانات المجموعة عن طريقها .

وموضوعية المنهج المستخدم تتطلب ضرورة استيفاء عدة ضمانات أساسية منها :

(أ) هل المنهج المستخدم هو فعلا الأكثر ملائمة مع طبيعة المشكلة

المطروحة من جهة ومع نوعية البيانات والمعلومات المتوقع الحصول عليها من جهة أخرى ٠٠ أم لا ؟

(ب) هل الأدوات المستخدمة فى جمع المعلومات والبيانات سوف توفر لها - أى للبيانات - نوعاً من الثبات ؟

بمعنى ٠٠ أن الباحث لو اعتمد على استمارة ما فى الحصول على بيانات معينة ٠٠ من عينة مختارة مثلاً ٠٠ هل يمكن له لو اعاد استخدام نفس الاستمارة على نفس للعينة بعد فترة زمنية محددة ، أن يحصل على نفس المعلومات ٠٠ أم لا ؟ ٠٠ لأنه لو حصل على نفس المعلومات ولو بمعدل انحراف بسيط تكون أداته موضوعية أما إذا حدث تغير جوهري فى البيانات المجموعة تكون النتيجة أن تلك الأداة لم تصمم بشكل جيد ٠٠ وبالتالي تكون غير موضوعية .

(ج) هل الأدوات المستخدمة فى جمع المعلومات صادقة أم لا ؟ ، بمعنى ٠٠ هل ما توافر تحت يد الباحث من بيانات نتيجة لاستخدامه وسيلة أو أداة فى إطار منهج ما ٠٠ هل هذه البيانات صادقة فى تعبيرها عن الحقيقة الموضوعية أم لا ؟

وصدق المنهج المستخدم فى التعبير عن الحقيقة الموضوعية نابع من قدرة الأدوات المستخدمة على قياس الظاهرة المبحوثة بالفعل ، لأن كثيراً من الباحثين يستخدمون مناهج ووسائل وأدوات هى فى حد ذاتها قد تكون جيدة أو مصممة بطريقة جيدة ، لكنها ليست صالحة أو بتعبير أدق ليست هى الأكثر صلاحية ومناسبة مع الظاهرة المبحوثة .

(د) الاعتماد كلما كان ذلك ممكناً على المناهج الكمية والاحصائية لأن ذلك الاعتماد ليس فقط دليلاً على علمية العلوم الاجتماعية ، وإنما هو أيضاً سبيلها إلى الصق والثبات للذين تحدثنا عنهما قبلاً ، هذا بالإضافة إلى أن القياس الكمي قادر إلى حد كبير على أن يمكن العلوم الاجتماعية من أن تقدم وصفاً وتحليلاً أكثر دقة للظواهر أو للمشكلات موضوع الدراسة .

هذا وقد سبق لأصحاب الاتجاه الوضعي الحديث أن نادوا بضرورة الاعتماد المطلق على العد والقياس إذا ما أريد لعلم الاجتماع بالذات أن يكون قادرا على التفسير والتنبؤ من خلال ما تتيحه الأساليب الرياضية فضلا عن تقدم التكنولوجيا لعلم الاجتماع من أقصى معدلات الصدق والثبات ، ولاشك أن استخدام المناهج الكمية والاحصائية شيء بالغ الحيوية بالنسبة لتقدم العلوم الاجتماعية وموضوعيتها وبحيث يصبح استخدامها ضرورة تفرضها المنهجية ما دام ذلك ممكنا ، مع عدم الإفراط في الثقة في معطيات هذه المناهج لما تتسم به الحقائق في العلوم الاجتماعية ذاتها من عدم الثبات لأن التغير هو سمة الظواهر المجتمعية جميعا .

- ٤ -

طبيعة المعرفة المتحصل عليها :

لاشك أن المعرفة هي الهدف النهائي لكل العلوم الاجتماعية ، ونحن عندما نقول المعرفة انما نقصد المعرفة المنظمة أو المعرفة العلمية القادرة على التفسير ومن ثم على التنبؤ .

لكن كيف يمكن للمعرفة في العلوم الاجتماعية أن تؤدي دورها في للتفسير من جهة ، وأن تصبح قادرة على التنبؤ من جهة أخرى ؟

ولعل الإجابة على هذا السؤال ترتبط بمدى علمية العلوم الاجتماعية ، وترتبط أكثر بالطريقة المنهجية التي تسلكها العلوم الاجتماعية وصولا الى التفسير ثم التنبؤ ، والمنهج العلمي هو الآخر له متطلبات وله أطر يجب أن يراعيها أو يسير وفقا لها ان أرادت العلوم الاجتماعية أن تحقق تقدما مشابها للتقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية والحيوية مع عدم اغفال للصعوبة المتعلقة بإمكان التجريب في العديد من العلوم الاجتماعية .

وعلى كل حال حتى يمكن وصف المعارف المتحصل عليها من خلال العلوم الاجتماعية بالعلمية أو بالموضوعية يجب أن يراعى فيها :

(أ) أن تهتم العلوم الاجتماعية بدراسة الوقائع التى يمكن اختبارها امبيريقيا أو على الأقل يمكن الاستدلال عليها بشواهد امبيريقية .

(ب) وحتى تكون الوقائع ممكنة امبيريقيا يجب أن تكون بعيدة عن الاحكام الاخلاقية أو للقيمة أو المعنائية .

(ج) التزام الموضوعية بشكل تام ، سواء عند دراسة الوقائع والظواهر المجتمعية أو سواء عند تفسيرها ، وبحيث لا تكون هناك تعميمات أو تنبؤات مبنية على استنتاجات تخرج عن اطار الظواهر وحدودها الواقعية أو الملموسة .

(د) أن يتم الوصف الدقيق لمختلف الخصائص المتعلقة بالظاهرة المبحوثة وتحليلها فى اطار من علاقاتها التسانيدية بغيرها من الظواهر المجتمعية ، وأن يكون الوصف والتحليل بهدف الوصول الى نوع من الحقائق أو المبادئ العامة .

ولكن كيف يمكن قيام تلك المعرفة العلمية بالنسبة للعلوم الاجتماعية ، خصوصا وأن التجريب أو الملاحظة العملية أمر صعب المنال بالنسبة لعدد من العلوم الاجتماعية ، وأمر هو المستحيل ذاته للبعض الآخر - كالتاريخ مثلا - ، خصوصا فى ظل الاعتقاد السائد بأنه لا علمية بغير تجريب ولا تجريب خارج المعامل ؟ !

وقبل أن نحيب على هذا السؤال .. نقول أن عددا غير قليل من علماء العلوم الاجتماعية ومفكرها قد أثاروا العديد من الاعتراضات على امكانيه التجريب فى العلوم الاجتماعية باعتبار أن للظواهر المجتمعية ظواهر تتسم بالتعقيد والتداخل ، فضلا عن ولم وحدات التحليل بها سواء اكانت أفرادا أو مجتمعات أو جماعات أو ثقافات على التغير والتجديد المستمرين .

وهذه الاعتراضات لا تنقل من قناعتنا بعلمية للعلوم الاجتماعية بل وبامكانية التجريب فيها بدليل التقدم الذى أحرزته علوم النفس والاقتصاد والسكان والجريمة فى هذا المجال .. لكن .. الأمر يستلزم جهدا مضاعفا من الباحثين فى مجال العلوم الاجتماعية ، كما يستلزم تطويرا مستمرا فى

المناهج والادوات المستخدمة للوصول الى الحقيقة . بل والى التنبؤ ايضا . .
ويتمثل ذلك الجهد المضاعف فى التقييم المستمر للمناهج المستخدمة ومحاولة
تطويرها باستمرار وابتكار اشكال تكاملية لها يمكن عن طريقها مواجهة تداخل
وتمتعيد وتبطل للظواهر المجتمعية ، مع الاستعانة بمنهج البحث التاريخى
ليقدم لنا تفسيراً لبعض الملامح الفريدة او المميزة التى قد تطفو على السطح
عند دراسة ظاهرة او موقف ما (*) .

نعود للاجابة على السؤال الذى لا زال مطروحا ، لنقول ان المبرفة
العلمية تنهض على منهج علمى فى التفكير والبحث ، ولقد حدد بوتومور مثلا
ما يمكن ان يحققه علم الاجتماع - وهو احد العلوم الاجتماعية - من خلال
اتباعه لقواعد المنهج العلمى فهو يرى ان :

(ا) عالم الاجتماع فى مقدوره ان يحصل على معلومات منظمة وواقعية
تمكنه من ان تكون له - اى لعالم الاجتماع - احكام منطقية حول الوقائع او
الظواهر المبحوثة ، وذلك من خلال اعتماده على المسائل ذات اللطابع العلمى
بدلا من تلك التى ترتكز على افكار تقليدية او غير لمبيدوية .

(ب) عالم الاجتماع يمكنه من خلال استخدام المنهج الصحيح ان يصل
فى بعض الاحيان ليس فقط الى التفسير الصحيح وانما الى تقبؤات صادقة
ايضا ، وذلك خلال دراسته الواقعية المنظمة ، حتى فى الحالات التى لايمكن
فيها التجريب او تلك التى يتعذر على الباحث فيها تفسير الظواهر تفسيراً
سببياً عليا .

(ج) عالم الاجتماع لديه القدرة من خلال استخدامه للمناهج الملائمة
على ان يصل الى ترتيب قضاياها ترتيباً منطقياً على حسب درجة عموميتها ،
الامر الذى يتيح له فى النهاية اقامة نظريات علمية (١١) .

(٢) يرى سوروكين امكانية الاستعانة بالقياس والاحصاء فى العلوم الاجتماعية .
ولكن ليس من منطق الهوس الرياضى لتقليد العلوم الطبيعية ، ولكن من خلال اصطناع منهج
متعدد الجوانب يركز على الملاحظة والمنطق العقلى علاوة على الحس الذى يعتبره ضروريا
لتجميع المستغلين بالعلم طبيعيا كان او انسانيا .

والعلوم الاجتماعية يمكنها جميعا بطبيعة الحال ان يكون لها نفس موقف علم الاجتماع كما حدده بوتومور ، كما ان لدوركايم رأى فيما يخص الكيفية التى تمكننا من الدراسة الصحيحة للظاهرة المبحوثة ، وحدد ذلك من خلال الخطوات الثلاث الرئيسية الاتية (١٢) :

(أ) ضرورة تحليل مكونات الظاهرة المبحوثة ، مع دراسة مختلف أشكالها وكيف نشأت ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لفهم طبيعتها مع عدم الاقتصاد على الحاضر أثناء دراسة الظاهرة بل يجب الرجوع الى الماضي والربط بينه وبين الحاضر .

(ب) التعرف على الوظيفة التى تؤديها الظاهرة الاجتماعية المبحوثة خلال مراحل تطورها المختلفة مع دراسة علاقاتها بغيرها من الظواهر الاجتماعية سواء المشابهة أو غير المشابهة ، مع الاستعانة فى ذلك بكل بمنطق المقارنة .

(ج) لابد من تجديد القوانين التى تفسر الظواهر الاجتماعية ، مع صياغة تلك القوانين صياغة دقيقة باعتبار أن الهدف النهائى للدراسة هو الوصول الى القوانين فى صورة كمية أو كيفية ، مع الأخذ فى الاعتبار أن القوانين ذات الصورة الكمية هى التى تعبر عن للظاهرة رقميا ، أما تلك القوانين ذات الصورة الكيفية هى تلك القوانين التى تبرز الخواص والصفات العامة للظاهرة المبحوثة الى جانب توضيح مختلف مكوناتها وعلاقاتها المتبادلة بغيرها من الظواهر الاجتماعية وغير الاجتماعية .

وختاماً للحديث حول الموضوعية كمقوم أساسى وهام من مقومات المنهجية فى العلوم الاجتماعية ، نقول أن الموضوعية كانت ولا زالت الإشغال الأساسى الكثير من العلماء والباحثين ، ولا زال كل منهم يبذل رايه فى العديد من الموضوعات التى تعرضنا لها وإن اختلفت مسمياتها عند بعضهم ، ولو أن الهدف دائماً واحد هو محاولة اثبات وتأكيد علمية العلوم الانسانية والاجتماعية .

المصادر والتعليقات

(١) أنظر : Gibson, Q., The Logic of Enquiry, Routledge & Kegan Poul, London, 1960, P. 77.

فى دكتور صلاح قنصوه - الموضوعية فى العلوم الانسانية - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٨٠ - ص ٥٩ .

(٢) أنظر : دكتور يحيى هويدى - مقدمة فى الفلسفة العامة - دار النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ٣٦ .

(٣) للاستزادة أنظر :

دكتور فتحى الشنيطى - أسس المنطق والمنهج العلمى - دار النهضة العربية - بيروت - ١٩٧٠ - صص ١٧١ - ١٧٢ .

(٤) للاستزادة أنظر :

دكتور توفيق الطويل - أسس الفلسفة - دار النهضة العربية - القاهرة - ١٩٦٧ - صص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) للاستزادة أنظر :

دكتور صلاح قنصوه - الموضوعية فى العلوم الانسانية - مرجع سابق - صص ٦٢ - ٦٦ .

(٦) للاستزادة أنظر :

James B. Conant, Science and Commonsense, Yale University Press, Compyright, 1951.

(٧) للاستزادة أنظر المرجع السابق .

(٨) دكتور صلاح الفوال - معالم الفكر السوسيولوجى المعاصر - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢ - ص ٨٤ .

(٩) المرجع السابق ص ٨٥ .

(١٠) المرجع السابق صص ٩٤ - ٩٥ .

(١١) انظر المرجع السابق صص ٨٩ - ٩١ لتأخذ فكرة عن امكانية

قيام النظريات فى علم الاجتماع ومنها على سبيل المثال نظرية دوركايم
فى الانتحار .

(١٢) نفس المرجع السابق ص ٩٥ .
